REVUE
DROIT & SOCIETE
مجلة
القانون و المجتمع
دورية علمية محكمة تعنى با لدراسات و الأبحاث في المجال القانوني و الاجتماعي و الاقتصادي.
PERIODIQUE SCIENTIFIQUE A COMITE DE LECTURE, CONSACRE A LA PUBLICATION D'ETUDES
ET DE RECHERCHES DANS LES DOMAINES JURIDIQUE, ECONOMIQUE ET SOCIALE
العدد العاشر- يوليوز/شتنبر 2023

التمثلات الاجتماعية للماء بالمجتمع المغربي

SOCIAL REPRESENTATIONS OF WATER IN THE MOROCCAN SOCIETY

Doi : 10.5281/zenodo.8186056

نبيلة بروحو

باحثة بسلك الدكتوراه، تخصص علم الاجتماع، جامعة ابن طفيل

القنيطرة، المغرب

مبارك الطايعي

استاذ جامعي

جامعة ابن طفيل القنيطرة، المغرب.

CC BY

التمثلات الاجتماعية للماء بالمجتمع المغربي

الملخــص:

من الأمور التي يؤمن بها أتباع أديان عدة أن الخالق جعل وأخرج من الماء كل شيء حي، ومن المسلمات التاريخية والأنثروبولوجية أن كل الحضارات البشرية الكبرى قديما وحديثا نشأت حول مصادر المياه وضفاف الأنهار والبحيرات، وكان الماء هو إكسير الحياة والنمو قدرا، وإكسير الحضارة والمدينة استخلافا، ولهذا لا غرابة في أن أغلب الأديان الكبرى وأغلب أساطير الشعوب كانت تعلي من أهمية عنصر الماء وقدسيته.

نبيلة بروحو

باحثة بسلك الدكتوراه، تخصص علم الاجتماع

جامعة ابن طفيل القنيطرة، المغرب.

مبارك الطايعي

استاذ جامعي

جامعة ابن طفيل القنيطرة، المغرب.

لقد عرف المغرب منذ القدم تنوعا ثقافيا كبيرا، نتيجة تلاقحه بثقافات الشعوب التي استوطنته، وهذا أفرز تنوعا مهما في الرؤى والتمثلات حول تيمة الماء عند المغاربة، ما يؤكد في الآن نفسه أن أي حضارة أو ثقافة كيفما كانت لا تخرج فجأة بلا منبت أو جذور، لأن قيامها رهين بما ترسب فيها عبر الزمن من خبرات قديمة في طبعها وطبيعتها، وسنحاول في هذا المقال العلمي تسليط الضوء على عنصر الماء بالدراسة والتحليل في التمثل الاجتماعي للمغاربة، فالماء يتعدى ماديته الفيزيائية والكيميائية بكثير، فيحاط بجملة من الاعتقادات والممارسات تصل إلى درجة تقديسه، حيث أنها ليست ممارسات واعتقادات تكرارية واعتيادية، بل يتفق عليها أفراد المجتمع، ويحددون لها طرائق وغايات، ويبررون لها الدوافع والمآلات.

ولما تعدى الماء خاصيته الطبيعية، وأحيط بجملة من الرمزيات والتمثلات تشكلت في العديد من مظاهر المخيال الشعبي، أردنا من خلال هذا المقال الكشف عن دلالاتها ومعانيها، وذلك من خلال رصدها في أكثر التمثلات الاجتماعية تناولا لعنصر الماء، كطقوس الاستمطار والمعتقدات والأمثال الشعبية.

كلمات مفتاحية: الماء، الحضارات، التمثلات الاجتماعية، المعتقدات، الرمزيات.

SOCIAL REPRESENTATIONS OF WATER IN THE MOROCCAN SOCIETY

Nabila BOUROUHOU
PhD Student in sociology
Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

Mbarek TAYI
University lecturer
Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

ABSTRACT

Among the things that many adherents of other religions believe in is that the creator made and brought out of the water every living thing. Historically and anthropologically, it is postulated that major human civilizations, both past and present, have emerged around water sources, lakes, and rivers. Water has been the elixir of life and growth in destiny, and the elixir of civilization and the city in succession, it comes as no surprise, then, that the significance and sanctity of water have been exalted in most major religions and mythologies. Morocco has long been known for its great cultural diversity, a result of its interaction with other civilizations and cultures that have inhabited its lands.

This diversity has given rise to varying perspectives and representations concerning the importance of water. It serves as evidence that no civilization or culture emerges out of nowhere, as their development depends on the accumulation of past experiences. In this scientific essay, we aim to shed light on the water element by studying and analyzing Moroccans social representations. Water goes far beyond its physical and chemical aspect, as it is surrounded by a wide range of beliefs and practices that reach the point of sanctifying it, as they are not repetitive and usual practices and beliefs, rather they are agreed upon by members of society who define methods and goals for it and justify its motives and outcomes.

Water has exceeded its natural properties and got surrounded by a multitude of symbols and representations within many aspects of the popular imagination.

Through this essay, we seek to uncover its significance and connotations by examining numerous social representation that deal with the water element such as raining rituals and popular beliefs and proverbs.

Keywords: *water, civilizations, social representations, beliefs, symbolisms.*

مقدمة

يحضر الماء وبقوة في الثقافة الإنسانية منذ القدم، حيث تؤكد العديد من الاكتشافات التاريخية والاهتمامات الأنثروبولوجية وغيرها من التخصصات أن الإنسان لا يستقر في مكان إلا إذا توفر فيه شرط الماء، باعتباره مادة الحياة، ومورد الخصوبة، وأصل الكون.

ومن الأسباب التي جعلت الماء يحتل مكانة مهمة في الأوساط الشعبية المغربية، هي الظروف المناخية، فالماء هو المتحكم في الزراعة في هذا البلد الذي يعيش تحت رحمة الطبيعة، ومن الطبيعي أن يضفي السكان قداسة على الماء، خاصة في المناطق الجافة.

فهذا الشعب رسخ في مخياله الاجتماعي والجماعي مجموعة من الطقوس والمعتقدات المائية، التي لم تخلق اعتباطا، بل تحمل في طياتها دلالات اجتماعية ورمزية يوظفونها في قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية والروحية. كما أن الماء يكتسي طابعا خاصا في الموروث الشعبي المغربي، يتجلى ذلك فيما يرد في الأمثال والأغاني الشعبية، من ضرورة وجوده والدعوة إلى حسن استغلاله ومدحه واستعمال كل الوسائل للحصول عليه.

وبذلك تعدى الماء خاصيته الطبيعية وأحيط بجملة من الرمزيات والتمثلات الاجتماعية، أردنا

الكشف عن دلالاتها ومعانيها، وذلك من خلال رصدها في أكثر مظاهر المخيال الشعبي تناولا لعنصر

الماء، كالطقوس والمعتقدات، والموروث الشعبي.

وعلى ضوء ما تقدم، يتبين أن الماء عنصر طبيعي، يحظى بوضع رمزي وحيوي جعله في أصل الطبيعة

والرمزية، وتبعا لذلك يمكن أن نطرح الإشكال التالي:

ما هي أهم التمثلات الاجتماعية للماء في نسق الثقافة الشعبية المغربية؟

ما السبيل لفهم البنية الرمزية للماء من خلال الطقوس والمعتقدات والموروث الشعبي؟

لدراسة هذه الاشكالية المتعلقة بشأن التمثلات الاجتماعية للماء في الثقافة الشعبية المغربية وفهم البنية الرمزية للماء من خلال الطقوس والمعتقدات والموروث الشعبي، اعتمدنا على مجموعة من المناهج منها

مراجعة الادبيات من خلال دراسة المقالات والكتب والأبحاث الحديثة التي تتناول ثقافة الماء في المجتمع المغربي، وتحليل النقاشات والتفسيرات الموجودة حول هذا الموضوع.

تحليل المصادر التاريخية والثقافية من خلال دراسة النصوص التاريخية والأدبية المتعلقة بالماء في الثقافة المغربية، مثل الأمثال والأغاني الشعبية والقصص التقليدية حيث عملنا على تحليل الرموز المستخدمة وفهم المعاني والرسائل التي يحملها هذا التراث.

التحليل الثقافي والرمزي حيث قمنا بتحليل البيانات التي تم جمعها وتصنيفها من الدراسات الميدانية والمصادر التاريخية والثقافية وبحثنا من خلالها عن الأنماط والتوافقات والتناقضات والمعاني المشتركة والرموز المستخدمة في الطقوس والمعتقدات المائية.

ان دراسة التمثلات الاجتماعية للماء في الثقافة الشعبية المغربية وفهم البنية الرمزية للماء تحمل أهمية كبيرة ، حيث ان هذه الدراسات تساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المغربي ونقله للأجيال القادمة من خلال توثيق هذا الارث اللامادي وجعله متاحا، كما، تساعد مثل هذه الدراسات على فهم الهوية والثقافة المغربية وتعزز التواصل الثقافي بين الثقافات المختلفة. وأخيراً، تفتح هذه الدراسات أبوابًا للبحث العلمي والتطوير في مجال العلاقة بين الماء والثقافة، مما يسهم في تعزيز التنمية المستدامة والاستدامة الثقافية والاجتماعية في المجتمعات المائية.

الماء و طقوسياته في المعتقد الشعبي للمغاربة:

تاغنجا (أو تِيسْلِيتْ أونزار) وطقوس الاستمطار:

من الطقوس المعروفة في شمال إفريقيا بمختلف أنحائها ومناطقها سواء الناطقة بالأمازيغية أو بالعربية العامية، الطقس المعروف ب (تاغنجا taghenja) أو "تيسليت أونزار"، أي عروس المطر الذي يعد من أقدم الشعائر الاستسقائية، ويهدف إلى استمطار السماء حين تكون الأرض والمحاصيل مهددة بالجفاف والتلف وشح المياه.

وتتمثل طقوس تاغنجا في الطواف بمغرفة (أَغُنْجَا) مكسوة بزي عروس "تيسليت" في موكب تشارك فيه النساء والأطفال، يرددون الأهازيج والأدعية، ويطوفون عبر الدواوير والقرى والأضرحة، وفي الطريق يتم رش الدمية بالماء من أعالي البيوت، خصوصا من قبل السكان، ويتم تحصيل واستلام العطايا والصدقات من الأهالي، حيث تخصص موادها لتهيئة مأدبة طقوسية تقام قرب مجرى نهر أو على بيدر (أنزار)، أو في مزار (أكَرّام)، أو على قمة مرتفع حسب المناطق، هذه هي الخطوط العريضة لهذا الطقس، لكن بالطبع هناك اختلافات ضحلة في شكل الدمية والمواد التي تتخذ منها العروس أو كسوتها، أو في لقبها والأهازيج التي يتم ترديدها، ومن أمثلة ذلك أنه في أيت بعمران تحمل فتاة الدمية المسماة تاغنجا متبوعة بأخريات يرددن: "تَاغَنْجَا نَمَّنْسْ رَبِّي وَالِّي إِزَكَّانْ آدْ إكّيتْ" ' telghonja numen s rebbi walli izgan ad agh ighit' بمعنى: "تَغْنْجَا حْلاَّتْ رَاسْهَا، يَا رَبِّي بَلْ خْرَاسْهَا"، فيرش السكان الدمية والموكب بالماء، وفي "أيت بوزمور" تحمل

النساء المغرفة متقاطعة مع قصب ومزينة بعقد حيث تتخذ هيئة عروس (Laoust, 1920, p. 206).

غير أن الباحثين الذين عرضوا لهذه الطقوس ووصفوها مثل "إدموند دوتي"، لم يوردوا في دراستها، أو التعليق عليها أي ميث (أسطورة) مؤسس لها، باستثناء "Genevois" الذي عثر على رواية شديدة الأهمية دونها من قبيلة "أيت زيكي" بسباو بالقبايل، والتي تقول: »في قديم الزمان، كان شخص اسمه "أنزار"، وكان هو سيد المطر، أراد الزواج من فتاة رائعة الجمال تتألق حسنا على الأرض كالقمر في السماء، وكان وجهها ساطعا وثوبها من الحرير المتلألئ، وكان عادة هذه الفتاة "تيسليت" أن تستحم في نهر فضي البريق، وكان سيد المطر كلما هبط إلى الأرض، يدنو منها فتخاف، ثم يعود إلى السماء، لكنه ذات يوم قال لها:

ها أنا أشق عنان السماء، من أجلك يا نجمة بين النجوم، فامنحيني من الكنز الذي وُهبته، وإلا حرمتك من الماء.

فردت عليه الفتاة:

أتوسل إليك يا سيد المياه، يا مرصع الجبهة بالمرجان، إنني إليك نذرت، لكني أخشى الأقاويل.

وبعد سماع هذه العبارات ابتعد عنها، فأدار خاتمه، فنضب النهر على الفور، وجفت آثار الماء، فأصدرت الفتاة صيحة وتفجرت عيناها بالدموع، فالماء هو روحها، فخلعت ثوبها الحريري وظلت عارية، فخاطبت السماء قائلة:

-"أنزار" يا "أنزار"، يا زهر السهول، أعد للنهر جريانه، وتعالى خذ بثأرك.

في تلك اللحظة بالذات لمحت سيد المطر، وقد عاد بهيئة شرارة برق ضخم، فضم إليه الفتاة، وعاد النهر إلى سابق عهده في الجريان، فاكتست الأرض كلها اخضرارا « (Marie-Luce, 2006, p. 81).

إذا دققنا النظر في ممارسة طقس الاستسقاء "أنزار"، وفي أسطورته سنجد أنه يحتوي على الكثير من الرواسب الأسطورية والممارسات القديمة، سنحاول استنطاق البعض منها، من أجل فهم مختلف جوانب الطقس.

صورة 1: طقس الاستمطار "تاغنجا"

فالمغرفة (Aghenja) التي تزين كالعروس الحقيقية تعتبر رمزا تلميحيا "لتاسليت وْنْزار" أي "عروس المطر"، إذ نجد أن بعض القرى تزين المغرفة وكأنها عروس حقيقية تنتظر بعلها "أَنْزَارْ"، فهما مصدرا خصوبة الأرض:» فاتصال أنزار السماوي والفتاة الأرضية هو المسؤول عن الخصوبة والاخضرار، بما يعني أن هطول المطر إنما ينجم عن زواج كوني بين أنزار، الماء المطري

السيد الملك (وضمنيا الإله)، ذي القدرة على الإخصاب وعروسه الأرض: تيسليت، أو ما يتماهى معه « (أسوس، 2007، صفحة 13).

ويمارس طقس الاستسقاء "أَنْزَارْ" من قبل الأطفال صغار السن، فمهمة رفع "تاغنجا" وتحريكها توكل إليهم تيمنا ببراءتهم، لأن الكبار إما أنجاس أو آثمون مهما أظهروا الالتزام بتعاليم الدين، فالقول الذي كان ولازال شائعا بين المغاربة هو أن الله لا يسقي عباده إلا رحمة بالأطفال وبالبكماء (الحيوان والنبات)، ومن المنظور الاسلامي أيضا، أن سخط الله ينزل على الأمم كلما كثرت فواحشهم، ويعتبر الجفاف واحدا من بين الأدوات العقابية الربانية، وقد يحدث أن تشاركهم العجوز في ذلك، فهي التي تتكلف بتزيين المغرفة كما في قبيلة أيت زيكي (أسوس، 2007، صفحة 13)، وهي التي تختار اليوم المناسب لممارسة الطقس، ويعود كل هذا إلى الخبرة والتجربة التي اكتسبتها، فهي أكثر معرفة بأسرار الطقس، إذ ربما تضيف إلى الطقس بعض الممارسات السحرية المجهولة عند الأطفال، فالدمج بين الأطفال والعجائز يجعل الطقس أكثر فعالية، إذ تجتمع فيهما كل الصفات التي تجعل ملك المطر "أنزار" يستجيب لهما، فهما يرمزان إلى الضعف وعدم القدرة على تحمل العطش والجوع.

الماء في طقوس الاحتفال بالعنصرة:

نرى أهل الجديدة وأزمور يذهبون يوم العنصرة للاستحمام في مياه البحر، بل إن منهم من يتكلف بالمجيء إلى البحر من الأماكن البعيدة، وتزال تراهم يأتون بالمجامر إلى ساحل البحر ليحرقوا فيها البخور، ونرى كذلك في تطوان كيف يمر "جْبَالَة" في يوم العنصرة على ساحل البحر، فيقضون هنالك يومهم كله يتحممون في البحر، وفي المساء يعودون للنوم في تطوان، ويذكر "شيني" أنه رأى في سلا شبانا يصنعون طوفا من القصب، ويجعلون يسبحون من حوله ويتمازحون (Chenier , 1787, p. 224)، وأما في مراكش فلا تراهم يضرمون النيران في "العَنْصْرَة"، بل يقذفون بعضهم بالماء داخل البيوت وفي الشوارع بملء سطول حتى ليغمر الماء ثيابهم كلها، كما أنهم يرمون بالماء على المساجد والأضرحة، وكثيرا ما تراهم يغطِّسون أشخاصا في "السَّقَّايَات" وموارد الماء ويتعطل الجميع في ذلك اليوم عن العمل، وفي المناطق التي يشح فيها الماء، كما هو الأمر في الصحراء مثلا، يتراشق الناس بالتراب، ونحن نعرف أن التراب في الإسلام هو بديل للماء، فبالإمكان التيمم بالتراب في غياب الماء.

الماء في طقس عاشوراء:

الاحتفالات بيوم عاشوراء في المغرب تجتمع فيها كل المتضادات والمتقابلات، فهو إما يوم حزن مستمر، أو فرح دائم، وتزيين، واستمتاع، وبهجة، وإن كان هذا هو الغالب، وتتميز بعادات شعبية مثيرة للاهتمام، ومن بينها عادة التراشق بالماء وأيضا عادة إشعال النار مع ترديد الأهازيج الاحتفالية من طرف الأطفال والنساء، فحسب "عبد الغني منديب" »يتضمن مهرجان عاشوراء طقوسا مائية ونارية هي بالأساس طقوس وقائية Prophylactiques وتطهيرية يدوم مفعولها سنة

بكاملها، وتتنوع هذه الطقوس بتنوع مناطق المغرب حيث تصل أحيانا إلى النواح ونذب الوجه كما هو الشأن عند رحل المناطق الوسطى لدكالة« (منذيب، 2006، صفحة 23).

الصورة 2: التراشق بالماء يوم عاشوراء "تزمزيمة"

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، ترتبط احتفالات عاشوراء في المغرب بعادة "رش الماء" أو ما يعرف ب "التْزَمْزِيمَة"، وهي عادة وتقليد عميق في الثقافة المغربية، يرتبط بعملية الغمر والغطس في الصباح الباكر ليوم عاشوراء، يقوم به المغاربة لطرد النحس والأرواح الشريرة، ويعتبرون أن عوم الصغار في صباح اليوم الباكر من عاشوراء ييسر نموهم بعيدا عن الأرواح الشريرة، كما أن مياه الآبار في يوم عاشوراء تَزْكَى بين صلاة الصبح وصلاة العصر، ويسمى ب "مَاءْ الزْكَى"، تروي الحكاية الشعبية بمنطقة "تافيلالت": »أن جُوجْ دْيَالْ لْخْوَاتَاتْ عَمْرُوا مَاءْ الزْكَى فِي قُلَّتَيْنْ، وهْرْسَاتْ وَاحْدَة مَنْهُومْ قُلَّتَهَا وَسَرَقَتْ قُلَّتْ اخْتْهَا، وَعَوْضَاتُو بِمَاءِ نَفْسْ البِئْرْ وَلَكِنْ مَاشِي مَاءْ الزْكَى، ومْعَ لْمُدّةِ مَاءْ الزْكَى مَا فْسَدْشْ ولْمَا لاَخُرْ فْسَدْ«، هذه الحكاية الشعبية دليل على بركة "مَاءْ الزْكَى" ليوم عاشوراء، الذي يستعمل في إطالة الشعر ويبطل جميع أشكال السحر، وفي هذا الصدد يقول "إميل لاوست" »وفي الصباح الباكر ليوم عاشوراء قبيل طلوع الشمس تبدأ المرحلة الثالثة المتمثلة في الاستحمام بالماء البارد، حيث يتحول ماء البرك والآبار والمطافئ إلى ماء مقدس (زمزم) يبطل كل أشكال السحر والنحس وسوء الحظ والطالع« (Laoust, Noms et Cérémonies des faux de joie chez les Bérbères du haut de l'Anti-Atlas, 1921).

ويمثل "التراشق بالماء" تيمنا ببركته، استحضارا لقصة انتصار نبي الله موسى على فرعون، وهذا ما أكده "إدريس هاني" الباحث في الفكر الإسلامي بقوله:» إن لليهود الذين قطنوا المغرب قرونا قبل الاسلام احتفالا خاصا بهذا اليوم أيضا، مبرزا أن هناك علاقة بين طقس الرش بالماء واحتفال اليهود بهذه الذكرى التي أنجى الله فيها موسى وأغرق فرعون، ويتابع الباحث بالتأكيد على أن ما يسميه المغاربة بيوم زمزم ليس سوى تعبيرا إسلاميا عن قصة ماء البحر الذي انشق لموسى، وأغرق فيه فرعون وجنوده« (هاني، 2010).

ومن المتعارف عليه خلال هذا اليوم عند المغاربة هو الإكثار من صب الماء على الأرض، حيث كان الناس يدعون حمالو الماء المعروفون ب "الكَرَّابَة" إلى ملء قرابهم وإفراغها في الأرض مقابل ما يعطيه المارة والمتجولون، معتقدين أن

ذلك يعد سببا لموسم فلاحي جيد، وفي البوادي والقرى يحرص الأهالي على الاستيقاظ المبكر، ورش النسوة أنفسهن وأولادهن بالماء البارد وهن يلهجن بالدعاء أملا في استدعاء بركة هذا اليوم، بل ويقوم الفلاحون برش محاصيلهم ومواشيهم أيضا طلبا لموسم زراعي وفير.

الماء من خلال المعتقدات الشعبية:

الماء وطهارة الانسان ثقافيا

للماء قوة سحرية عظيمة عند المغاربة، فهو رمز لمسح الخطايا والذنوب المرتكبة، حيث يعتقدون أن نزول الأمطار أثناء الجنائز، إنما هو بكاء الطبيعة وتجهمها على الميت وتحسرها على فقدانه، وينزل منهمرا إذا كان الميت وحيدا، يتيما، لا يوجد من يرثيه، حيث تقول إحدى الراويات عائدة بذاكرتها إلى الوراء: »مْنِينْ مَاتْ الْحَاجْ عْلاَلْ اللهْ يْرَحْمُو، طَاحَتْ الشْتَا مْجَهْدَا، تْقُولْ حْزْنَاتْ عْلِيهْ وْ تْأَسْفَاتْ عْلَى المُوتْ دْيَالُو، نْزْلَتْ شْتَا حْتَى رْوَاتْ الأَرْضْ، وْحْتَى البَرْدْ نْزْلْ، هَدَاكْ النْهَارْ عَمَّرْنِي مَنْسَاهْ حْتَى نْمُوتْ«، من خلال هذا القول، تتبدى لنا أهمية حالة الجو أثناء الجنائز، فيتم الاعتقاد بأن المطر نبوءة على أن الجثة مباركة، وهناك قصة من العصور الوسطى، تقول: »إن جنازة رجل طيب لازمته العاصفة، لكنه كوفئ بالراحة والسعادة، على حين لقيت زوجته الشريرة مصيرا مناقضا لهذا في الحياة الثانية، برغم أن يوم جنازتها كان مشرق الشمس صحوا« (كراب، 1967، صفحة 353)، ويعني هذا أن نزول المطر أثناء الجنازة دليل على أن صاحبها سيكافأ بجنة النعيم.

ويعتقد المغاربة أن ندرة الأمطار وغزارتها بيد الله تعالى، فهو وسيلة للانتقام ومحاسبة النفس، فإذا غضب الرحمان من أفعال البشر، إما يسلط عليهم عقابا بالقحط والجفاف أو عقابا بالفيضانات، يقول تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} (سورة الشعراء، الآية 173)، فعندما »لا تتكون السحب التي هي سبب سقوط المطر، فإن هذا يدل على أن العلاقة التي تربط الإنسان بالله هي علاقة غير قوية، بسبب معصية الإنسان لأمر الله أو لسبب آخر، لهذا يقوم الإنسان أو المجتمع الكبير بتقديم الأضاحي لله سبحانه وتعالى، وذلك من أجل تقوية العلاقة معه« (دنكن، 1986، صفحة 178).

أضف إلى ذلك أن نزول الأمطار في عقلية بعض المغاربة ما هو إلا نقاء للأرض، وتطهيرا لها من مختلف النجاسات، فالماء في نظرهم،» يطهر جسد الإنسان وروحه وكل ما يلحق بهما من دنس وأقذار مما قد يعلق بالجسد والروح، إما لاتصاله بأجساد الموتى أو الدم، أو غير ذلك من الأشياء التي تصفها الشريعة البدائية بأنها دنس، مثل الحيض والمرض، حيث يزول الدنس عن طريق الاستحمام « (ثناء، 2000، صفحة 281)، فالطهارة التي تتم بالماء هي الحصن المنيع ضد الكثير من الأوبئة الفتاكة.

وهناك من يقول للشخص الآثم، الكثير الذنوب، العبارة المجازية التالية: "سِيرْ غْسَلْ ذْنُوبَكْ" أي (اذهب وطهر نفسك بالماء وابدأ حياتك من جديد)، فالماء بهذا المعنى مطهر للإنسان، به يبدأ حياته من جديد، فكأنه يمنح له ولادة جديدة،» فيكون الماء قوة حميمة،

يستطيع أن يطهر الكائن الحميم، ويستطيع أن يمنح النفس الآثمة من جديد بياض الثلج. « (باشلار، 2007، صفحة 210)

الينابيع المائية والمعتقدات العلاجية

تنظر العامة إلى الماء نظرة تبجيل أخرى عندما يتعلق الأمر بالينابيع المائية الحارة ذات الخاصية الاستشفائية، فقد اعتاد المغاربة زيارة الحَمَّات الطبيعية، ولا سيما حمَّة "مولاي يعقوب"، اعتقادا منهم بقدرة ماء الطبيعة على شفاء الأمراض التي تصيب الجسد، وهو من المعتقدات القديمة، إذ »عرف الأقدمون مزايا الشفاء التي تحويها المياه المعدنية والمياه الحارة« (فريزر، 1982، صفحة 149)، ذلك أنه يحدث - في كثير من الأحيان – أن يعارض بعض العامة إدخال أي تغيير على تلك البقاع المحتوية على مياه معدنية حارة، إذ يرون أن بقاءها على حالتها الطبيعية أنفع للعلاج، وإبقاءً "لِلْبَرَكَةِ"؛ وهم يفضلون الاستحمام في الأحواض الجماعية لأنها أقرب – في نظرهم – إلى الحالة الطبيعية من الغرف الحديثة المزودة بالرشاشات، ويدعون هذه الغرف الجماعية (أو الأحواض) ب "حَمَامْ الْبَرَكَة" تمييزا لها عن غرف الرشاشات الفردية التي هي في نظرهم مجرد حمامات عادية، »إن مثل هذه المقدسات المكانية تكرر مرارا على امتداد الأرض العربية، وتعيش حكاياتها الأسطورية في أذهان الجماهير العربية، لدرجة أن بعضها بات جزء لا يتجزأ من طقوس الجماهير أو تقاليدها« (خليل خليل، 1986، صفحة 73).

الماء في الموروث الشعبي المغربي:

البعد الرمزي للماء في الأمثال الشعبية المغربية:

"الْمَا نَعْمَة": إن الماء من أعظم النعم على البشرية وعلى جميع الكائنات، حيث جعله الله تعالى من أهم أسباب الحياة فهو روح الكائنات بعد الروح، حتى اقترنت الحياة بالماء، فقال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} (سورة الأنبياء، الآية 9)، ومن هذه الآية يتبين أهمية الماء لجميع المخلوقات وأنه لا يمكن الاستغناء عنه مهما بلغت البشرية من علم وتكنولوجيا.

وعن ضرورة وجوده صحبة الطعام يرد المثل القائل: "الطْعَامْ بْلاَ مَا، مَنْ قَلَّةْ لَفْهَامَة"، فكمال الغذاء لا يتم إلا بوجود الماء، و "الْمَا والأعْوَادْ، والقُوتْ عْلَى الْجْوَادْ" و"كْسَرْتِي وْمَايَا، وَلاَ حْدِيثْ قْفَايَا".

ومن أدعية الخير التي تعترف بقيمة الماء ما يلي: "الله يْجَعْلَكْ كِي الْمَا، تَخْرَجْ مَنَّكْ كُلْ نَعْمَة".

وبما أن الماء مطهر للشخص من الكفر والنجاسة والأردان، فوجب استعماله وعدم التكاسل عن أداء الفروض الدينية بحجة ندرة الماء، لأن "الْمَا بْلاَ شْرَا، والْقَبْلَة بْلاَ كْرَا".

ويستخدم الماء في النظافة الشخصية كما يستخدم في شعائر الطهارة الدينية بأشكالها ومناسباتها المختلفة، كما هو الحال في الوضوء الذي يسبق الصلاة، أو للتخلص والتطهر من دنس الحالات الاستثنائية العارضة (الجنابة - الحيض) أو غسل الميت المقبل على المحاسبة في

القبر،» فالماء إذن هو الذي يرد الفرد من ذلك الوضع الاستثنائي إلى الحياة العادية، أي أنه يرده إلى المجتمع، وبذلك يعود التوازن إلى العلاقات التي تربطه بالآخرين « (أبو زيد، 1999).

- تتعامل العامة مع الماء – أحيانا – بكل حذر، حين يرتبط الأمر بالمعتقد الشعبي عن عالم الجن والشَّيَاطين، ولذا تمنع العامة أبناءها من الاستحمام في بعض الأوقات من اليوم، والمثل الشعبي يقول في هذا المعنى: "عَوَّامَة وْنَوَّامَة، مَنْ العَصَرْ لْهِيهْ مَا ضْمَنْتْ لْهُمْ سْلاَمَهْ"؛ أي أن الاستحمام والنوم في الفترة الممتدة من وقت العصر إلى المغرب، قد يؤدي إلى الإصابة "بضربة جن".

- "بْطَنْ الْحُوتْ اسْقِينِي وْلاَ نْمُوتْ"، هذا مثل من الأمثال المشهورة عند الفلاحين المغاربة، وبطن الحوت هو منزلة من المنازل الفلاحية التي تحل في الثالث والعشرين من شهر مارس من كل عام، وهو تاريخ حاسم في نجاح أو فشل الموسم الفلاحي لأن فيه تمتلئ الحبوب، فإن لم تسقط أمطار كي تروي ظمأ السنابل العطشى ابتداء من هذا التاريخ حتى دخول منزلة الثريا التي تحل بتاريخ واحد وعشرون أبريل فإن "كُلْ مَا حْرْثْ الجْمَلْ دْكُّو"، كما يقول المثل المغربي، يعني أن السنة الفلاحية سوف تكون عجفاء.

الحضور الرمزي للماء من خلال الأغاني الشعبية:

يركز التراث الشعبي على تقديس الخصب، وبما أن المطر هو الذي يجلب الماء للأرض ويسقيها، فقد كان واهب العطاء، سبب حياة الدنيا وربيعها، الربيع الذي بقدومه تبدأ دورة الحياة، فالماء هو روح الحياة، وهذا ما تعبر عنه مجموعة من الأغاني الشعبية منها:

أَشْتَا صَبِّي صَبّي طِيحِيلِي فِي قُوبِّـي.

يَا رَبِّ تَرْحَمْنَا وَحْنَا صَبْيَانْ شْنُو دَرْنَا

أَفِيلاَ عَطْشَانَا سْقِيهَا يَا مُولاَنَـا

إن الفرح بالشتاء يكون على شكل إيقاع يحاكي تساقط قطرات المطر، كما يظهر في الأغنية الشعبية التي يرددها الأطفال بشكل جماعي فرحا بالمطر:

أَشْتَا تَاتَا تَاتَا تَاتَا أَوْلاَدْ الْحَرَّاثَـا

أَمّكْ تَجْرِي وَتْطِيحْ وبَاكْ دَاهْ رِّيـحْ

آلمْعَلَّمْ بُزَكْـرِي طَيِّبْ لِي خُبْزِي بَكْرِي

رَاهْ بَا حَالَفْ فِيَّا بَاشْ يْقْطَعْ لِيَّا وَدْنِيَّا

فالأغنية عبارة عن نداءات موجهة إلى الفلاحين وأولاد الحراثة ليستعدوا لحرث الأرض التي جعلها المطر طيعة (أَشْتَا تَاتَا تَاتَا تَاتَا أَوْلاَدْ الْحَرَّاثَا)، غير أن الماء بما يمتلكه من بذرة الحياة، قادر على الفعل بشرط الحركة، فالماء بحاجة لحركة دائمة ليتحول إلى قوة تستطيع الجريان، أي لا بد من عاصفة شديدة، هذه العاصفة المطرية التي فاجأت الأم في الحقول، جعلتها تعدو

وهي تسقط كل مرة حتى تصل إلى البيت، وعصفت بالأب الذي ظل يعمل في حقله (أَمَّكْ تَجْرِي وْطِيحْ وْبَاكْ دَاهْ الرِّيحْ)، ولا شك أن الجوع والطلب على الخبز سيزداد لدرجة أن معلم الفران عليه أن ينضجه بسرعة قبل أن يعود الأب مجهدا من عمله وجائعا ويعنف الطفل (الْمْعَلَّمْ بُوزكْرِي طَيِّبْ لِ خُبْزِي بَكْرِي رَاهْ بَّا حَلَفْ فِيَّا بَاشْ يْقَطَّعْ لِيَّا وَذْنِيَّا).

إن دائرة الفعل تبدأ من امتلاك الماء لخاصيتي السحر والخصب، فهو قادر على الخلق والإحياء والإنبات، وتجميل الكون، وهذا ما تظهره الأغنية الشعبية التالية:

أَهْيَا مُولْ جْنَانْ رَبِّي حَنَّانْ دَابَا تْطِيحْ الشْتَا وْيْنُوضْ النَّوَّارْ

خْلِينِي يَا مُولْ الجْنَانْ خْلِّينِي غِيرْ نْشُوفْ بْعِينِـــي

ويرتبط بالماء ما يدعى بالاستسقاء، وهي عملية« طلب السقاية من الله سبحانه عند حدوث الجذب، وتأثر الناس في شربهم وشرب مواشيهم، وتأثرت نباتاتهم ومزروعاتهم لانعدام المطر » (خليفي، 1995، صفحة 133)

إلا أن مسألة تقديس الأولياء التي تعتبر من أهم ركائز التدين الشعبي بالمغرب جعلت الأولياء يلعبون دور الوساطة بين الأهالي وبين الله، فأصبح للولي دور بارز في المجتمع المغربي، وهذا ما تشير إليه الأغنية الشعبية التالية:

غَايْتَا غَايْتَا أَبَابَا رْبِي صْبَّحْهَا رَاوْيَا بالشْتَا وْلْغَرْبِي

غَايْتَا غَايْتَا بُودْرَابَلْ صَبَّحْ النْدَى عْلَى لْمْزَابَلْ

في هذه الأغنية الأهالي يتضرعون إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي يعتقد فيه الصلاح والتقوى، والذي تشير إليه الأغنية بلفظ "بُودْرَابَلْ" أي "المجذوب" الذي: »عادة ما يرتدي ثيابا رثة وأسمالا غريبة، وقد يترك عرفا كثيفا من الشعر ولحية طويلة، ويتحلى أحيانا بحلي مختلفة، وكان يتجول هنا وهناك، يعيش من الهبات والصدقات، وينام صيفا في العراء، وشتاء في أماكن لا تخطر على بال: كالإسطبلات، وزوايا الدكاكين، والحمامات أو المقاهي الصغيرة بعد أن تغلق أبوابها، فهو لم يكن متسول بالمعنى الكامل، ولا بأحمق، بل إنه يمثل بالإضافة إلى ذلك شخصية شاذة متميزة، ينطق بكلام ثاقب وطريف، وله عادات وحركات غريبة« (جنذوبي، 2004، صفحة 23).

خلاصة

يرتبط الماء في المتمثل الشعبي المغربي بالخصوبة والعطاء من خلال العديد من الطقوس والتقاليد التي تحمل رمزية الإناث والحياة (تاغنجا، المطر، الارض). وتعكس هذه التقاليد القيم والمعتقدات العميقة التي ترتبط بالماء كمصدر حيوي وعنصر أساسي في الحياة اليومية والثقافة المغربية.

كما ارتبط الماء ايضا بالطهارة سواء الطهارة الجسدية المرتبط بالجسد والهندام و ازالة

الاوساخ و الاستشفاء من الامراض و ايضا الطهارة الروحية و المرتبطة بمسح الخطايا والذنوب المرتكبة.

غير ان المتمثل الشعبي الموروث بدا يتأثر بالثقافة المكتسبة، فلم يعد الماء في الوقت الحالي مرادفا للعطاء و النقاء و الطهارة، بل اصبح في بعض الاحيان يرمز الى السهولة "ساهل مثل الماء" او الى تفاهة الشيء و انعدام القيمته كمثال على ذلك " الماء و الشطابة الى قاع البحر" و "الماء و الزغاريد" لتعبير عن الجودة السيئة للطعام، وهذا ما يجعل الباب مفتوحا لدراسات جديدة حول تحول رمزية الماء في المتمثل الشعبي المعاصر.

مجلة القانون و المجتمع
العدد العاشر- يوليوز/شتنبر 2023

ردمد : 8152 – 2737
معهد الدراسات الاجتماعية و الاعلامية

بيبليوغرافيا

Chenier , L. (1787). Recherche sur l'histoire des Maures et L'histoire de L'Emperie de Maroc chez l'auteur,Bailly et Royer. Paris: Imprimerie Polytyque.

Laoust, E. (1920). Mots et choses berbères: notes de linguistique et d'ethnographie dialectes du Maroc. Paris: Librairie maritine et colonaile.

Laoust, E. (1921). Noms et Cérémonies des faux de joie chez les Bérbères du haut de l'Anti-Atlas (Vol. I). Rabat: Hespéries.

Marie-Luce, G. (2006). Une cuiller à pot: tlaghnja, pour demander la pluie analyse de rituels nord-Africains contemporains. Journal de la Société des Africanistes, pp. 81-102.

أحمد أبو زيد. (مارس, 1999). الماء والبناء الاجتماعي ومفهوم الزمن. المجلة العربية للثقافة(36).

أحمد خليل خليل. (1986). مضمون الأسطورة في الفكر العربي. بيروت: دار الطليعة.

إدريس هاني. (15 12, 2010). www.alarabiya.net.

ألكزاندر هجرتي كراب. (1967). الفولكلور. (صالح رشدي، المترجمون) القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

أنس ثناء. (2000). رمز الماء في الأدب الجاهلي. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

جيمس فريزر. (1982). أدونيس تموز. (إبراهيم جبرا جبرا، المترجمون) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

سورة الأنبياء، الآية 9. (بلا تاريخ).

سورة الشعراء، الآية 173. (بلا تاريخ).

عبد الغني منديب. (2006). الدين والمجتمع: دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

عبد القادر خليفي. (1995). من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (غنجة). مجلة الثقافة الشعبية(2).

غاستون باشلار. (2007). الماء والأحلام: دراسة في الخيال والمادة. (علي نجيب إبراهيم، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

محمد أسوس. (2007). دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي. الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الأبحاث والدراسات 6، مطبعة المعارف الجديدة.

محمد جنذوبي. (2004). الأولياء في المغرب: الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية. مطبعة دار القرويين.

ميتشل دنكن. (1986). معجم علم الاجتماع (الإصدار 2). (محمد الحسن، المترجمون) بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.